

الجواهري / جغرافية الكتابة وأثرها في تحولاته الشعرية

أ.م.د. عارف حمود سالم الساعدي

الجامعة المستنصرية / كلية التربية

Arif_alsaadi@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠١٩/٦/٩

تاريخ القبول: ٢٠١٩/٧/١٠

This work is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الملخص:

إن الأمر الأكثر أهمية في هذا البحث هو النتيجة التي يمكن أن نستخلصها من تجربة الجواهري الشعرية، حيث التحول المستمر على ضوء التحولات الجغرافية، مما يعني أن رؤية الجواهري هي السابقة على بلاغته، فاختلفه عن شعراء جيله، ومدينته، وهم أكثر، وربما لغتهم أكثر عذوبة من الجواهري وقد ذكرنا الشاعر "محمد سعيد الحبوبي" مثلاً على ذلك في متن البحث، إلا إنهم تقليديون، ف شعرهم ملتصقٌ بالتاريخ، فيما شعر الجواهري التصق مدة بسيطة بالتاريخ، ولكنه انفلت من التاريخ إلى الجغرافية، لأن الخارج من التاريخ قد يعود إليه، ولكن الخارج من الجغرافية لا يعود إليها كما يُضرب المثل، لهذا فعلاقته بالمكان أبعدته من أن يكون شاعراً تقليدياً.

الأمر الآخر هو المرونة التي يبديها الجواهري إزاء الأماكن فهو يستجيب لها بسرعة هائلة، ويتفاعل معها تفاعلاً إيجابياً، وما إن يطمئن للمكان الذي يعيش فيه، حتى يتغير مزاجه تماماً، وتتغير بذلك لغته الشعرية وصوره وزاوية النظر وخطابه بشكل عام، وهذا الأمر لا يحصل لأي شاعر، فليس كل الشعراء لهم كيمياء مع الأماكن، ذلك إن الجواهري هو الأكثر تأثراً بالمكان والأسرع استجابة لندائه.

إن الميزة الأخرى التي تميزت بها نصوص الجواهري المكانية، هي ابتعادها من أن تكون وثيقة تؤرخ وتؤرشف أحداث هذا البلد أو هذه المدينة، إنما طغت الوثيقة الفنية على الوثيقة التاريخية كثيراً، وهذا تحول مهم بالنسبة للمدرسة الكلاسيكية.

الكلمات المفتاحية: (الجواهري / الكتابة / جغرافية)

Al-Jawahiri: The Geography of Writing and its Impact on Poetic Transformation

Assistant Professor Dr. Aref Hmood Salem Al-Saedi

College of Education /University of Al-Mustansiriya

Arif_alsaadi@hotmail.com

Abstract:

Mohammed Mehdi al-Jawahiri is one of the most important poets whose poetry is dressed up in the heritage. However, there are different perspectives to view al-Jawahiri's poetry at the top of which – I believe – is the place. Here I do not mean the philosophical dimension of the place, but the place in its geographical and environmental dimensions, with its trees, dreariness, beauty, water and snow, with the village that pulses in his poetry, and the city that looms large upon it. Here, I would stop at the "Spatial Geography" since the heritage has already been largely discussed.

What made me discuss the geography in al-Jawahiri's poems is the tremendous variety that is available in his texts due to his continuous wanderings. This means that his references to the heritage is not the most predominant in his poetry. The language that he exerted efforts to preserve its diction, and dive deep on its secrets, was not the sole basis for the poetic craft of al-Jawahiry. This language varies differs and changes in view of the change that occurs in the geographical locations.

Keywords: Al-Jawahiry , geography of writing , poetic transformation

مدخل:

يُروى إنَّ الشاعر "علي بن الجهم" وهو شاعر تمتعت لغته بفصاحة عالية، قدم إلى بغداد، أيام "المتوكل"، حيث ازدهار بغداد، وحيث الحياة الناعمة المختلفة تماماً، عن حياة البداوة، وكعادة الشعراء توجه ليمدح الخليفة، فبدأ بقصيدته التي مطلعها:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمنك دلواً من كبار الدلا كثير الذنوب

فاستغرب جلاس الخليفة ونداماه من هذه الخشونة التي تطغى على خطاب الشاعر ذي اللهجة البدوية، ولكن الخليفة كان أعرف بطبيعة البيئة وأثرها على النتاج الأدبي، فأمر له بدارٍ حسنةٍ على شاطئ دجلة، فيها بستان حسن، والجسر قريب منه، وأمر بالغذاء اللطيف، وكان يرى حركة الناس، ولطافة الحضر، فأقام ستة أشهر على ذلك، والأدباء يتعاهدون مجالسته، حتى استدعاه الخليفة فأنشد بين يديه قصيدته الشهيرة:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكل قولته الشهيرة في علي بن الجهم (لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة).

أسوق هذه المقدمة لأتحدث عن نموذج شعري عراقي، ملأ الدنيا المعاصرة، وشغل الناس جدلاً وحواراً، ذلك هو الشاعر الكبير "محمد مهدي الجواهري" بوصفه المثال والنموذج الأكثر التصاقاً بالمكان، وبجغرافيته، حتى لتبدو شقوق الأرض طافحة في نصوصه، أو خضرة المكان متفشية في نصوص أخرى، مما جعله نموذجاً شعرياً لتجسد الأمكنة، وحلولها في نصوصه، وكأنه ملتصق بروحه وجسده في المكان، ومعبرٌ عنه بنصوصه التي يُشم منها عطرُ الأمكنة التي عاشها وألفها.

وبسبب من مرجعيته الثقافية التي كوَّنت شخصيته الثقافية، وهي مرجعيات تراثية ودينية، أسهمت ببناء شخصيته الشعرية، لهذا فقد كان السائد في شعر "الجواهري" هو غلبة اللغة والروح التراثية، ويصل الحال في نصوص عديدة، إلى الوعورة في اللفظ، مما استدعى محققي ديوانه في بغداد في سبعينيات القرن الماضي أن يضعوا تحت كل قصيدة من قصائده معاني للكلمات، وتحديدًا في بداياته الشعرية.

إنَّ الجواهري أحد أهم الشعراء الذين تلبس الموروث شعرهم، ولكن في الواقع هناك زوايا نظر مختلفة تفحص شعر الجواهري، وأهم هذه الزوايا - كما أظن - هو المكان، ولا أقصد به ذلك البعد الفلسفي للمكان، إنما المكان بجغرافيته، وبيئته، وبأشجاره،

ووحشته، أو بلطفه ومائه وتلجه، بالقرية التي فيه وبالمدينة، وهنا سأتوقف في هذا البحث عند محور "الجغرافية المكانية" ، لأن التراث أخذ حصته من الدراسة في شعر الجواهري.

إن الذي دعاني أن أخصص الجغرافية في نصوص الجواهري، هو ذلك التنوع الهائل الذي يحصل على النصوص من خلال تجواله المستمر، مما يعني أن مرجعيته التراثية لم تكن هي المرجعية الأقوى لديه، فاللغة التي أجهد نفسه على حفظ مفرداتها، والغوص بمكنوناتها، لم تكن هي الأساس الوحيد لصناعة الجواهري الشعرية، بل إن هذه اللغة التي يمتلكها، تتحول وتتبدل بتبدل الأماكن والمناخات فهي (كالماء الجاري ، وهو يمر على الحصى والحجر والطين وكل شيء فيؤثر فيه، ويتأثر به...)(الزبيدي، ٢٠١٥، ص ١٠) (alzubaidi,2015,P10)

بهذا المنظور نحاول مقارنة هذه الفكرة التي تقول إن المكان هو الموجه الأكثر أثراً على الجواهري في إنتاج القصيدة، على خلاف ما هو متعارف عليه، بأن الموروث له سطوة كبيرة على شعر الجواهري، وأن مغذياته الكبرى تنبع من اللغة وموروثها، ذلك أن الأماكن جميعاً، مدناً، قرى، وعواصم أوربية وعربية وشرقية، تلك التي عاش فيها تُعدُّ نبعاً، ومغذياً حياً، ينشر ظلاله في نصوصه المختلفة، ذلك إن شعر الجواهري في النجف، هو غير شعره في بغداد، وهو غيره في "علي الغربي" وغيره في طهران وغيره في بيروت ودمشق" وهو يكاد يكون شخصاً آخر وشاعراً آخر في براغ.

إن هذه التحولات التي تحدث للجواهري بوصفه نصاً شعرياً متنقلاً، وهو ذاته من تحدت عنها في مذكراته أيضاً من خلال تأثير الأماكن على وعيه، وثقافته، وبالتالي على نصه الشعري (الجواهري ١٩٩٩، ص ١٢١) (aljawahiri, 1999,p121) هذه التحولات في لغة القصيدة، ومعجمها بالتحديد، وفي صورها، وزاوية النظر، أي في شكل الخطاب بشكل عام وفي مزاج القصيدة - إذا صحت هذه التسمية - حين تكون بمناخ مختلف وجديد.

إذاً هي تحولات في اللغة الشعرية، وفي طبيعة الكتابة الشعرية نفسها، وحتى في شكلها، رُصدت من خلال متابعة رحلات الجواهري، وما كتبه في تلك المدن، شاباً في النجف ، أو مهاجراً لبغداد، أو منفياً ومزارعاً في قرى "علي الغربي" في جنوب العراق، أو لاجئاً في دمشق، أو مسافراً في أصفهان وطهران، أو منفياً ومقيماً في براغ. لذلك كان هذا البحث رسداً ميدانياً لرحلات الجواهري وللنصوص التي كتبها في تلك الرحلات، راصدين تحولات هذه النصوص من حيث اللغة وزاوية النظر وبعض التحولات الشكلية

للقصيدة، كما حصل في نصوص عديدة كتبها في براغ، لذلك كان البحث أكثر ميلاً للإجراء والتحليل من التنظير، ويكاد يقتصر البحث على ديوان الجواهري ذي المجلدات السبعة - التي طبعت في بغداد في السبعينيات - وعلى مذكراته، وعلى بعض المصادر التي تُضيء وجهة النظر التي انطلق منها البحث.

جواهري النجف

شكلت النجف تلك المدينة التي ولد فيها الجواهري ونشأ ودرس، المحطة الأولى في مسيرته الشعرية، حيث الحروف الأولى التي كتبها، والكتب الأولى التي قرأها، ومن خلال تفوهات الجواهري نفسه في مذكراته يتضح شكل المدينة التي كانت عليها النجف، حيث نجد تضافراً ما بين البيئة والنص الذي كتبه في تلك المدة، فضلاً عن أثر الموروث المهم، ولكن جغرافية النجف الوعرة كان لها أثرٌ واضحٌ في نصه أيام شبابه، هذه المدينة التي يقول عنها في أول سطر في مذكراته (ولدتُ فوق أرضٍ ملحيةٍ عطشى بالرغم من أنها على مقربة ميل أو ميلين من مياه الفرات) (الجواهري، ١٩٩٩، ص ٢٩) (Aljawahiri, 1999, p29) ثم يستمر "الجواهري" بسرد مشاهد عن هذه المدينة التي يضيق فيها، حيث كان يقول (بين أونةٍ وأخرى تضيق عيناى بمشهد الصحراء الجافة اللانهائية) (الجواهري، ١٩٩٩، ص ٢٩) (Aljawahiri, 1999, p29) إذ ما الذي يمكن أن تتركه مشاهد هذه المدينة في قلب الصبي الشاعر وذاكرته؟ وهي المدينة التي يقول بأنها (كانت مدينة بلا شجر ، ولا عشب ، وبما يشبه الشحة في المياه ، أيضاً، عدا مياه الآبار. فقد زحف الملح من البحر اليابس إلى أرضها ، وغطت رياح السموم كل ما فيها بلون التراب الرمائي) (الجواهري، ١٩٩٩، ص ٣١) (Aljawahiri, 1999, p31) وضمن هذا السياق الذي يلف المدينة ما الذي يمكن أن يُنتج الشاعر الذي تشكل البيئة جزءاً أساسياً في نصه الشعري؟ وتحديداً المكان الذي يحيط به؟ منطلقين من الرؤية التي ترى أن المكان قد (يفرض لغته على النص وقد يشكل هذا جزءاً من وعي لغة المكان (...)(النصير، ص ٥) (al_naseer, p5) وهنا نستعير سؤال الناقد "ياسين النصير" حول الربط بين المكان والنتاج الأدبي فـ(هل يحمل المكان كروموسومات وراثية ليفرضها على سكنته بحيث تفرز من خلال نتاج أبنائه خصوصية سلوكية وإبداعية؟) (النصير، ص ٧٨) (al_naseer, p78) ومن ثم يعود "ياسين النصير" ويرى بأن تساؤله افتراضي، وربما غير مشروع، لكنه يستحث هذا التساؤل ما هو بايلوجي لأن يستوعب ما هو ثقافي، وضمن هذا الفهم يتشكل ما يشبه بالاندماج الكلي بين الشخص وجسده المكاني (النصير، ص ٧٨) (al_naseer, p78)

أما نحن الباحثين عن هذا الربط ما بين البيئة والقصيدة، فليس لنا إلا الإجراء الواقعي، أي فحص القصائد، وكأننا في مختبر تحليلي لفحص دم القصيدة، أو البحث عن "dna" القصيدة، وبهذا نقول إن هذا النص عائدٌ للمدينة الفلانية دون تلك المدينة، وما سهل عملية هذا الفحص السريري للنصوص هو الجهد العظيم الذي قام به محققو ديوان الجواهري، وهم من كبار علماء العربية (مهدي المخزومي، علي جواد الطاهر، رشيد بكتاش، إبراهيم السامرائي) حيث وضعوا تحت كل قصيدة تاريخ كتابتها، والمكان الذي كُتبت فيه ومناسبتها، وما هذه الإشارات إلا علامات أولية تحيل النص الشعري إلى منبع إنتاجه الأولي، وبهذا قد قدموا خدمة كبيرة للباحثين، الذين سيعيدون النصوص إلى مدنها التي كتبت فيها، حيث التحول في اللغة، والصورة، وزاوية النظر.

فها هو "الجواهري" في بداية كتاباته في النجف يقول في أوائل قصائده ١٩٢١ :

هو العزم لا ما تدعي السمُر والقضبُ
وذو الجد حَتَّى كل ما دونه لعبُ
ومن أخلفته في المعالي قضيةُ
تكفّل في إنتاجها الصارم العضبُ
ومن يتطلب مصعبات مسالكُ

فأيسرُ شيءٍ عنده المركب الصعبُ (الجواهري، ج١، ١٩٧٧، ٨٧)

(aljawahiri 1,1977,p87)

يتبين من خلال هذه الأبيات، وهي جزء من نص طويل، أن الشاعر الذي يتحدث في النص منشطر على نصين: التراث والمكان، حيث الشجاعة التي تبعث أمصالها في اللغة وبلاغتها، وحيث البيئة التي تصفق لمثل هذه الأفكار المكررة، فوعورة اللغة، واللجوء إلى مفردات مثل (السمُر، القضب، الجد، الصارم، العضب، مصعبات، الصعب) كل هذا المفردات الخشنة في ثلاثة أبيات، وهي تُشبه خشونة المدينة التي يصفها الجواهري لحظة فتح عينيه على ملوحتها وسورها القديم، علماً أن النص يشتمل معظمه على هذه اللغة، التي ألجأت محققي الديوان إلى وضع معانٍ للكلمات، وكأن الشاعر - في هذه النصوص - ينتمي للعصر الجاهلي، لهذا فاللغة هي ليست لغة الجواهري، قدر ما هي اللغة التقليدية التي تشربها، والبيئة النجفية التي غرق فيها، وتأثر بمناخها وخشونتها، فأنتج نصاً مطابقاً

للمدينة التي كان يعيش فيها الجواهري ذو العشرين عاماً، وللمكان الذي لم ير غيره في تلك المدة ، فلا يستطيع الانفلات من الواقع إلا بهذا النص الذي يشبه مدينته الصحراوية.

لقد بقي الجواهري - كما أزع - متأثراً بالبيئة أكثر من الموروث اللغوي، رغم سطوة الموروث وهيمنته، إلا إن البيئة بقيت محرضاً رئيساً في الكتابة، فهو حتى حين كتب عن ثورة العشرين فإن الناقد "علي جواد الطاهر" في مقدمة ديوان الجواهري يرى أن المكان هو سبب هذه الكتابات (لقد انصرم عام ١٩٢٠ أو كاد .. ولتكن بقايا الثورة العراقية، أول موضوعات النشر كأنه لا يريد أن يخرج عن النجف وعلى النجف بما ترسخ فيها من مفهوم الشعر وموضوعاته حتى كاد يأسن ..) (الجواهري ، ج١، ٦٩، ١٩٧٧) (aljawahiri 1,69,1977)

لهذا فالبيئة تشكلت عاملاً مهماً لدى "الجواهري" في بناء نصوصه الشعرية، وحتى في طريقة المعالجة، وزاوية النظر، فضلاً عن العامل الأهم وهو تغير معجمه الشعري، تبعاً لتغير المكان الذي يسكنه، ويعيش فيه، ليصل حد التسرب بمساماته، وهنا أعود وأردد ما ذكرته أعلاه من قول للعلامة اللغوي الدكتور "طارق الجنابي" عن لغة الجواهري بأنها (كالماء الجاري ، وهو يمر على الحصى والحجر والطين وكل شيء فيؤثر فيه، ويتأثر به) فما كتبه الجواهري في النجف، غير ما كتبه في بغداد، وما كتبه في بغداد يختلف عما كتبه في براغ، وبيروت، ودمشق ، وهكذا تشكل تلك الحواضر والمدن التي مر بها وأقام فيها، مصدراً ملهماً بصناعة النص الشعري، وبتحول لغته تحولاً حاداً، نابعاً من طبيعة المكان وأثره على الشاعر، وقد لا تكفي الإقامة فقط للتحول في المزاج الشعري، أو تحول اللغة الشعرية، إنما الإقامة تثبت الكثير من سحرها في لغة الشاعر.

وهنا قد يسأل سائل لماذا لم تتأثر لغة "الحبوبي" ببيئة النجف الوعرة؟ وقد عاشها قبل الجواهري بأكثر من سنتين عاماً، مما يعني أن الحياة أكثر شظفاً وتعباً، والإجابة على ذلك - كما أظن - أن "الحبوبي" شاعر تقليدي بامتياز، يحفظ النصوص القديمة، وينسج على منوالها لغةً وصوراً وأداءً ، مما يعني أن هناك انفصاماً عن البيئة ، فالشاعر التقليدي منفصلٌ تمام الانفصال عن بيئته، وأجوائها، وهمومها ،ويومياتها، أما الجواهري الذي التصق بالأرض اختلف عن سابقه في أن يُنتج نصاً مشابهاً لمدينته الوعرة، رغم خشونة مفرداته وغلظتها، مما يعني أنه كان الأكثر قرباً إلى أجواء مدينته دون غيره من شعراء ذلك العصر.

وأعتقد ان المجلد الأول من ديوان الجواهري الذي طبعته وزارة الاعلام في سبعينيات القرن الماضي أخذ المساحة الأكبر من شعر الجواهري بتلك اللغة الوعرة التي تشبه مدينته حيث كتب معظم قصائده ايام شبابه في تلك البيئة التي وصفها في بداية البحث.

جواهري بغداد

حين ارتحل من النجف إلى بغداد، وأقام بها، حلت بيئة أخرى وعالمٌ ثانٍ مختلفٌ عما كان يعيشه الجواهري، وهو القائل عن بغداد بأنها (كانت بالنسبة لي عالماً مجهولاً، ذهبتُ إليها لاكتشاف هذا العالم الجديد ، زيارتي إليها كانت أشبه بعربي ملهوف يزور باريس لأول مرة ...) (الجواهري ، ج ١، ١٩٩٩، ص١٠٨)

(aljawahiri 1 ,1999,p108)

هكذا سحرت بغداد ذلك الفتى الذي كان يسمى نفسه في تلك المدة بـ"الشبح النجفي" وهذا الشبح النجفي نفسه يقرن شعره بالبيئة التي كان يعيش فيها (أنا لا أزال أتحدث عن الناحية الأدبية والشعرية عندي، وليس من السهولة بمكان انفكاك هذه الناحية عن ناحية البيئة والمجتمع وحتى عن ناحية حياتي الشخصية)

(الجواهري ، ج ١، ١٩٩٩، ص ١٢١) (aljawahiri 1,1999,p121)

، رغم أن الحديث عن بغداد أو عن مدن عربية أخرى في تلك المدة، وحتى هذه اللحظات، هو حديث عن مدنٍ لم تنفك عن وشائج القرى، وماتزال الحدود بين إسمنت المدينة وخضرة القرية غير واضحة تماماً (العلاق ، ص ١٤٧)(al_allaq,p147) ولكن مع هذا فإن الجواهري انبهر ببغداد في العشرينيات، ذلك أنه يقارنها بالنجف تلك الحاضرة المغلقة، فيما كانت بغداد تدب حركة وضجيجاً كما كان يصورها الجواهري نفسه في ذكرياته، لذلك أثرت بغداد عليه، فبمجرد أن زارها واستقر فيها، نجده قد تحول شعرياً وبطرق مختلفة، فمن الشاعر الذي يكتب عن ثورة العشرين، وعن الهم والحزن، وعن حالته النفسية في النجف، وعلاقته برجال الدين، وهذا الأفق الضيق الذي كان يدور فيه الجواهري، نجده قد تحول إلى جواهري آخر ذاب في ملامح المدينة الجديدة، وتشرب عاداتها، وانصهر ببعض ملامحها، فما هو يقول في قصيدة "ليلة معها" ١٩٣١

يدها بناصيتي ومحزما

بيدي فمنتصرٌ ومنحدرٌ

فلئن غلبتُ فخير متسدٍ

للشاعر الأعكان والسررُ

ولئن غُلبت فغالبِي ملكُ

زاهٍ به المغلوب يفتخرُ

عندي من استماعة صورُ

ومن التغنج عندها صورُ

عيني فدى عينيك سيدتي

عيناك قد أضناهما السهرُ (الجواهري، ج٢، ١٩٧٧، ص٢١٢)

(aljawahiri ,2,1977,P212)

يتضح هنا التحول لدى الجواهري، وهو يسكن بغداد في الثلاثينات، إذ تتشذب لغته من السيوف والرماح والقضب والخيول - لولا مفردة الأعكان - وتبدأ المدينة ببث سحرها في لغته أولاً، ومن ثم في زوايا النظر التي كان ينطلق منها، فكم هي مفارقة كبيرة في عشرينياته يصيح :

لعل الذي ولى من الدهر راجعُ

فلا عيش إن لم تبق إلا المطامعُ

غرورُ يميننا الحياة وصفوها

سرابٌ وجنات الأمانى بلاقعُ ((الجواهري، ج٢، ١٩٧٧، ص١٠١)

(aljawahiri ,2,1977,p101)

بينما في بداية الثلاثين من عمره، حيث تحول العمر، وتحول المكان من النجف إلى بغداد تجده يقول:

عيني فدى عينيك سيدتي

عيناك قد أضناهما السهرُ

لهذا فالتحول ليس فقط في معجمه الشعري، إنما في زاوية النظر التي تحولت لديه، حيث تخلى عن البلاغة الرنانة التي تصل حد الحماس والمفاخرة، إلى بلاغة الشارع البسيط،

وبلاغة العاشق الذي يدور في طرقات المدينة، وهذا التحول - كما أعتقد - هو بسبب تحول المكان، فالمدن المغلقة لا تربّي إلّا أصواتاً معتدّة بذاتها أكثر، وتظنُّ هذه الأصوات أنها الأهم في العالم، لأنهم في الحقيقة لا يرون غير ذواتهم، لهذا تنتفخ تلك الذوات بلغة منتفخة، ولكن ما إن رأى "الجواهري" أن هناك مدينة غير مدينته وأناساً مختلفين عنه، وعليه أن يعيش معهم، انفتحت روحه على هذا المناخ، وهذا الانفتاح استدعى أن تتحول زاوية النظر لديه، أما تحوله اللغوي أو تحول معجمه الشعري فيأتي تابعاً لتحول خطابه الشعري بشكل عام.

جواهري إيران

إن السفرتين اللتين عملهما الجواهري إلى "إيران" ما بين ١٩٢٤ و ١٩٢٦ أسهمت كثيراً بتحول الجواهري فكراً ولغوياً (فمن النجف المحاطة بالسور العتيق المتهوي وقبورها إلى ربوع إيران بين الينابيع الدرارة والسهول الخضراء والجبال الشاهقة العملاقة وأغاني الرعيان والبدو الرحل أصحاب المقامات الشهيرة وبأنغام الناي الجميل وألحان "التار" الساحرة والذين ظلا يأسران النفوس قبل الأسماع منذ آلاف السنين (الجواهري، ١٩٩٩، ص ١٢٢)

(aljawahiri، 1999، p122)

والجواهري نفسه يشخص التحول الذي حصل له، فهو يرى بأن هاتين السفرتين أسهمتاً بوضعه بالمصب الجديد الذي تفجر به، ويعبر عنه بالإرتقاء في كتابة النصوص (الجواهري، ١٩٩٩، ص ١٢٤)

(aljawahiri، 1999، p124)

، وهو ذاته أيضاً يجيب على هذا التحول في كتابة النصوص، والتحامه بالبيئة الجديدة حيث يقول مستغرباً من كتابة نصوص مختلفة تمام الاختلاف عن نسق الجواهري ولغته وسياقه (وإلا فمن أين جاءني ذلك الخلق الجديد في أن أكون بعد عام أو عامين من تينك السفرتين صاحب "جربيني" و"ليلة من ليالي الشباب" و"عريانة") (الجواهري، ١٩٩٩، ص ١٢٤) (aljawahiri، 1999، p124)

فمن يتوقع ممن يكتب (لعل الذي ولى من الدهر راجع) أن يكتب:

جربيني من قبل أن تزدريني وإذا ما ذممتني فاهجريني

ويقينا ستندمين على أنك من قبل كنت لم تعرفيني

لا تقيسي على ملامح وجهي وتقاطيعه جميع شؤوني
 أنا لي في الحياة طبعٌ رقيقٌ يتنافى ولون وجهي الحزين
 (الجواهري ، ج٢، ١٩٧٧، ص٤٨٩) (aljawahiri ,2,1977,p489)

جواهري الجنوب "علي الغربي"

بقي الجواهري على هذا المنوال في بغداد بهذه الحياة الصاخبة التي اقتحمها بقوة، كما اقتحمته بالقوة نفسها، حيث خاض السياسة وحبائلها، ودخل الصحافة ومشاكلها، إلى أن نُفي إلى جنوب العراق حيث عمل في الزراعة في مكان إسمه " علي الغربي " وهي منطقة زراعية بقي فيها الجواهري لأكثر من سنتين يعمل في الزراعة ، هذه البيئة الريفية أيضا ألقت بظلالها على شعر "الجواهري" لغة وصوراً وبناء حيث يقول في قصيدة "الراعي ":

لف العباءة واستقلا
 بقطيعه عجلا ومهلا
 وانصاع يسحب خلفه
 ركبا يعرس حيث حلا
 يرمي بها جبلا فتنبع خطوه
 ويحط سهلا
 يومي فنفهم ما يريد
 ويرتمي فتهب عجلي
 وتكاد تعرب بالثغاء هلا
 وحيهلا وهلا
 وار تد يحمل ما يصون
 ذما وما اغنى وقلا

نايا يذود به الونى
ويلون النسق المملا
وعصا يهش بها
ويرقى ذروة ويقيم ظلا
ياراعي الاغنام
انت اعز مملكة واعلى
تزهى بان الارض خضراء
زهت نبنا وبقلا
وتود لو حنت الفصول
على الربيع فكن فصلا
وتلم في الاسحار

عقود النجوم اذا تدلى (الجواهري، ج٥، ١٩٧٧، ص٣٢٧-٣٢٨)

(aljawahiri 5،1977،p327-328)

هنا في هذا النص يتجلى المكان بأعلى مستوياته أثراً على "الجواهري" حيث يلتقط لقطة من لقطات الريف، وهو "الراعي" ومن ثم يسير خلف تفاصيل هذا الراعي في تشكيل شعري اعتمد تقنية الوصف وبنى نصه على الأفعال الحركية التي تشبه حركة الراعي " لف ، استقل ، انصاع ، يسحب ، يعرس ، يرمي ، تتبع ، يحط ، يومي ، تفهم ، يرتمي...) فهذه الأفعال وغيرها خرجت من معجم الأرض التي يعيش عليها الجواهري، أي المنطقة الريفية هي التي أنتجت هذا المعجم ، فيما تراجعت لغته التراثية، واختفت طريقته التقليدية في معالجة النص، بمعنى انزواء البلاغة المعتادة في بطون الكتب، لتقدم الحياة بلاغتها بطريقة أكثر مرونة وأقل كلفة من المعجم التقليدي الذي يتكلف ببناء الصورة وانتقاء المعجم.

إن التحول الأهم في هذا الموضوع هو اختفاء الذات الشاعرة واكتفاؤها بكاميرا المصور الماهر، فالنص الشعري لا نجد فيه صوتاً حاداً للشاعر مثلما كان الجواهري في بداياته، حيث كان يتردد صوته في معظم أرجاء القصيدة، ولكن هنا وفي نصوص أخرى سنقف

عندها نجد الوصف الموضوعي الذي تتداخل معه موهبة الشاعر بتشكيله فقط، دون أن تكون أنه الشعرية مؤشراً واضحاً وقاسياً لترتيب الأحداث، فالراعي هو البطل وأغنامه جزء رئيس من التشكيل، والمكان بفضائه ونجومه وسمائه مكان مفتوح وحميم، والشاعر ما عليه هنا إلا نقل هذه المشاهدات الحية، ورسم البهجة عليها، خصوصاً إذا عرفنا أن الشاعر ضاقت به المدينة، وهو هنا كأنه يرثي حال المدينة بلا وعيه الشعري، فبمجرد التغني بالفضاء المفتوح والأرض الخضراء، وصحبة الأغنام بدلاً من الناس تنبئ عن المسكوت عنه فيما عاشه الشاعر من ضيق من المدينة وناسها.

جواهري براغ

يبدو أن التجلي الأكثر للمدن في شعر الجواهري، يتضح بعد اغترابه، في "جيكوسلوفاكيا" سابقاً، وتحديداً في "براغ" التي يسميها الساحرة (لؤلؤة هذا الفلك) (الجواهري ج ٢، ١٩٩٩، ص ٢٩١) (aljawahiri 2,1999,p291)

فقد اختلف إيقاع الحياة لدى الجواهري، وتتنوع علاقاته الإنسانية، وخفت الكثير من أحماله التي كانت تثقله في بغداد، فبدت تلك الحواضر محفزات مهمة في نصوصه، حتى أنه يصف براغ في إحدى أشهر قصائده "المملحة" بأنه طاف سبع سنوات فيها، ورمى الجمرات، ولكن من قلبه، حباً وشغفاً، وإنه يصف نفسه بـ"الحاج" الذي يأبى الإنصراف من البيت المقدس حيث يقول:

وقى بها نذراً فوافى وسعى بها سبعا وطافا
ورمى لها الجمرات من قلبٍ تعلقها شغافا
عاد الحجيج وقد سعى وسعى ويأبى الإنصرافا
يتلمس الجمرات يعرفهن قربي وازدلافا
ويرى بكل ثنية بعثاً لذكرى واكتشافا
ألوى بها والتلج يحتضن المشارف والحفا
السمحة المعطاء حُمِلت الخصاصة والشظافا
سيمت عن المرح الخواء وعن رغادتها الكفا
عريت فراحت بالنديف البض تدثر التحافا

حتى المسارج في الكوى الخفرات يخفقن ارتجافا
وشتا بها وكأنه لم يشت قبل ولا أصافا

متنظراً عرس الربيع لعله يرعى الزفافا (الجواهري ج ١٩٧٧، ٥، ص ٣٢٧)
(aljawahiri 5، 1977، p327)

تُعد هذه المقدمة واحدة من المقدمات الطللية المعاصرة، فقد اعتدنا في الطلليات القديمة أن يبكي الشاعر الديار ويستذكر كل شيء، وهنا "الجواهري" لم يغادر سنة الشعراء القديمة، في وقوفه على الديار، ولكنها الديار الأوربية هذه المرة، والتي يلفها الثلج والبرد والمرح والشواطىء، إن ميزة "الجواهري" أنه وقف فعلاً عند هذه الديار، وأنه يحن إليها حيناً حقيقياً، بدليل ما استثمره من خزينة الديني، وتناصاته الطقوسية، مع حجيج البيت الحرام، حيث وضع نفسه بنفس الموضع، موضع الحاج الذي طاف، ورمى الجمرات من قلبه، ولكنه أبى أن يغادر هذه الديار طمعاً بالمزيد من جمالها وبهائها.

أقول لقد زحفت تلك المدن التي سحرت "الجواهري" فهي فضلاً عن خضرتها وجمالها، فقد اخذ لبه "الأثكيت" الذي كان يُعامل به "الجواهري" فقد سكن ما يقارب الستة أشهر في أرقى فندق في المدينة، فضلاً عن إقامته الطويلة فيما بعد، وكان الجواهري يشعر بالزهو يومياً لأن كان يقول بأن (العلم العراقي كان يُنصب أمامي فطوراً وغداء وعشاء وما شابه ذلك من الحفاوة والتكريم.... كانت الفترة التي عشتها في براغ فترة عز ودلال) (الجواهري ج ١٩٩٩، ٢، ص ٢٨٩) (aljawahiri 2، 1999، p289) ، أعود وأقول لقد زحفت هذه المدن على لغة الجواهري، فطعمتها بالشهي من المفردات، وأومات لصوره، فغدت صورته الشعرية نابضة بين الواقع والحلم، وبدا عنفوان الجواهري التقليدي جزءاً من الذاكرة، حيث شذبت تلك الجبال، والطبيعية الخضراء، والروح المدنية، من عنفوان البادية، وصراعات مقاهي بغداد، (حيث ابتدأت براغ وجمالاتها تنتزل علي بما تنتزل من هذه القطعة أو تلك أو هذه القصيدة وغيرها، ثم ان تتصاعد بعد ذلك ، وهذه سنة الحياة حينما يكون المرء بين حال وحال ومرحلة ومرحلة ونفسية ونفسية وموقف وموقف، ويصح القول إن هاتين السنتين على وجه التقريب كنتُ بحاجة إليهما لكي أعوض عن جزء من ذلك الزمن في بغداد) (الجواهري ج ١٩٩٩، ٢، ص ٢٩٣) (aljawahiri 2، 1999، p293) وفي هذه المدة كتب الجواهري في عام ١٩٦١ قصيدة عن براغ أسماها "براهها" حيث كانت عاصمة "الجيكوسلوفاكين" ، يقول فيها:

براهها سلامٌ كلما خفق الصباح على الهضاب

ما هزَ فجرُ بالندی خضر الأباطح والروابي
 ما نفضت ریح الصبا قارورة العطر المذاب
 ما طارح الروض الحمام لدى الشجيرات الرطاب
 براها سلامٌ ما اكتسى ألق السنا مزق الضباب
 براها سلامٌ ما ارتمت كسراً أغاريد الشبـاب
 ما فاض كوب بالشراب وخلا على شفـتي كعاب

(الجواهري ج ٥، ١٩٧٧، ص ٦١) (aljawahiri 5، 1977، p61)

هنا امتص الجواهري تلك المدينة، فخرجت في ملامح نصه دافئة رشيقة، تُشبه ملامحها الأصلية، ملامح المدينة الأوربية، حيث يتعنى الشاعر بالمدينة، مانحاً إياها صفاتها الأساسية، دون أن يُضيف شيئاً من بداوته عليها، هو فقط أمسك كاميرته، وطاف في المدينة، فهي التي تدليه أين يلتقط الصور التي تبقى خالدة، لذلك أزعـم أن "الجواهري" في هذا النص فارق كثيراً الجواهري الذي عرفناه في النجف، وبغداد، والشام، وببيروت، إذ سمحت تلك المدينة الأوربية للقادم الغريب أن يكون جزءاً من ملامحها، وبهذا الالتحام استطاعت تلك المدينة أن تذيب هذا الشخص بلامحها ليكون نصه جزءاً من ملامح المدينة الفنية.

واظن أن الاختلاف الذي حُـسب "للجواهري" في هذا النص أنه يواجه لأول مرة مدينة حقيقية بلامحها، وهيكلها، وشوارعها، ومقاهيها، وبعلاقاتها الإجتماعية وأنساقها الثقافية، علماً إن الموقف من المدينة هو دائماً موقف فلسفي من الحياة وسلوكها وهذا ما عبر عنه الدكتور علي جعفر العلاق بان الشعر اخذ يندمج في الحياة المدنية بعد ان بدأت تستقطب جهد الانسان بعيدا عن البراري والفضاء المفتوح(العلاق ، ١٣٧) (al_allaq, 137) إن الغريب في الأمر هو ليس فقط في تحول لغة الجواهري من الخشونة المعتادة الى اللغة الرقراقة الناعمة بل إن شكل القصيدة يتغير أيضاً، فهاهي قصيدة "فرصوفيا" تأتي بنمط واداء مختلف اذ لأول مرة يتخلى الجواهري عن كبرياء القصيدة العمودية فيكتب قصيدة متناوبة القوافي ومختلفة الايقاع اذ يقول

"فرصوفيا" يا نجمة تلالا

تغازل السهوب والتلالا

وتسكب الرقة والدلالا

فوق الشفاه الضامئات الحاميات الحائيه

وبين أهداب الجفون الغافيات الوانيه

"فرصوفيا" الحلوة يا ذات القطوف الدانيه

من ذا يوفي سحرك الحلالا

وحسبك المدمر القتالا

يجشيم اللذة والأهوالا

حالان الأحلى أمرُ حالاً

إذا أجلت فكري الجوالا

في كيف صيغ حسبك ارتجالا

أتعبت الأسطورة الخيالاً

"فرصوفيا" إن الصبا فيك ارتغى فعربدا

ققي به عند الحفافين فقد جاز المدى

كالإفعوان انساب في الرملة كيما يبردا

تطلبت عيون حسناواتك الخضر الفدى

وكالأقاحي إذ تعب سحره قطر الندى

تذوبت خمرك في الخد الذي توردنا

وانفرج البرعم في النهه الذي تنهدنا

"فرصوفيا" يا روعة اليوم الذي ينسي غدا)

(الجواهري ج ٥، ١٩٧٧، ص ٢١٣) (aljawahiri 5، 1977، p213)

يتضح أن "الجواهري" بدأ بتشكيل نص مختلفٍ على مزاجه الخاص، فلا هو نصٌ عمودي، ولا هو نص تفعيلة، ولا هو نص ينتمي إلى مرحلة الرومانسيين، الذين كتبوا

القصيدة بقوافٍ متعددة، إنما جعل القصيدة تتشكل من مقطعين الأول بقافية اللام وألزم نفسه بها، ولكن، بمقاطع مختلفة، مرة ثلاثة أسطر، ومرة سبعة أسطر، ومرة سطران، بينما أخذ المقطع الثاني منحى مختلفاً، إذ تعددت قوافيه، والتزم بتفعيله الرجز المجزوءة، ولم يُعرف عن "الجواهري" أنه تملل من القوافي، وهو المعروف بطول قصائده، ولا يضيق به البحر الذي يكتب عليه، فما الذي دعاه أن ينوع في التفاعيل والقوافي؟.

أليست "فرصوفا وبراغ وأوربا - بشكل عام - فضلا عن البيئة المتنوعة من أسهمت جميعا بتنوع "الجواهري" الذي لم يُعرف عنه إلا بعد منفاه في "براغ" هذا النمط من الكتابة، فلا تفسير لهذا التحول إلا بربط النص بالمدينة، من حيث اللغة والبناء، فلغة النص احتوت معجماً مغايراً لكل معاجم الجواهري التي عُرف بها، فنجد لديه (حلو ، تلال، برعم، نهد، عيون، السحر، اللذة، الرقة، الدلال، الشفاه...الخ) إن أثر المدينة على لغة الجواهري واضح وجلي ذلك أنها تحولت من الخشونة المعتادة في شعره، نحو اللغة الدافئة، القريبة من الهمس، التي تتغنى بالجمال فقط، فضلاً عن أنه يتحدث عن هذه المدينة الأوربية "فرصوفا" التي ألبته أن يرصف أبياته الشعرية كما تُرصف بيوت المدينة، التي تحدث عنها في ذكرياته، ووزع ونوع قوافيه بتنوع الحياة، ومفاجئاتها الدائمة.

إن هذا الربط بين النص والمدينة ليس الأول من نوعه، فقد ربط الدكتور "علي جعفر العلاق" كثيراً بين نصوص الشعراء العراقيين، وبين مدنهم، حيث يذكر مرحلة الخمسينيات ويربط شعر "البياتي" ببغداد المدينة في تلك المرحلة قائلاً (...لقد كانت لغة المدينة في الخمسينات حقا، فهي كوضع المدينة آنذاك مباشرة، وتلقائية، وواضحة، في الأحيان، غير أنها كانت في الوقت ذاته تفتقر إلى شيء من الرواء والتماسك..)(العلق ، ١٤٤)(al_allaq, 144) وهناك نقاد آخرون انطلقوا من فهمهم للمدينة بوصفها نصاً متحركاً، ومن ثم يتحول النص إلى أن يكون هو المدينة نفسها، تقرأ كما لو كنت تقرأ المدينة ، اللغة فيه هي الأعماق ، لذلك لا تمنح المدينة لغتها إلا لمن يملك فهما جدليا لبنيتها (النصير، الجبوري ، ياسين ، زهير، ٢٠٠٨) (al_naseer, yaseen, zuhair) (al_joubouri, 2008) لهذا نجد الجواهري في براغ تحول شكلياً وروحياً في الكتابة، ومثلما كتب "فرصوفا" فإنه كتب نصوصاً عديدة بهذا المناخ، والنمط من الكتابة، ومنها قصيدته "سلاماً عيد النضال" في براغ عام ١٩٦٣ وكأنها تشبه الموشح، إلا أنها لا تلتزم بالقافية الموحدة للموشح في نهاية الأبيات، حيث يقول في المقطع الأول:

سلاماً : وفي يقظتي والمنام وفي كل ساع وفي كل عام

تهادى طيوف الهداة الضخام

تطايح هاماً على إثر هام

سلاماً وما انفك وقد الضرام

من الدم يشخص حياً أمامي

سلاماً وفي كل ما استعيدُ من الذكريات وما أستفيدُ

من العبر الموحيات الدوامي

أحس ديبياً بها في عظامي (الجواهري ج ٥، ١٩٧٧، ص ٢٠٥)

(aljawahiri 5،1977,p 205)

لقد استمر هذا النص بحدود عشرة مقاطع مختلفة القوافي والترتيب، أعني عدد الأبيات في كل مقطع، فمرة تأتي ثمانية، ومرات أقل، أو أكثر، دون أن تربط هذه المقاطع قافيةً موحدةً، ومثلها أيضاً قصيدته (أطفالي وأطفال العالم)

لي طفلتان تقنص الخيالاً

عبريهما والعطر والظلالاً

أسوء حالاً كي يُسرّاً حالاً

وكي يراحا أستلذ التعباً

لي ناشئان يرقصان الملعباً

قد أوشكا من رقة أن يُشرباً

لم يعرفا غير الصفاء مذهباً

وغير حب الناس أمماً وأباً (الجواهري ج ٥، ١٩٧٧، ص ١٧٧)

(aljawahiri 5،1977,p 177)

وهنا نجد جواهرياً مختلفاً تمام الاختلاف عن الجواهري، الذي تتسيد البلاغة مواضع عديدة من قصائده، ولكنه هنا يجترح بلاغة مختلفة، حيث اللغة التي تدور في فلك الطفولة (ملعب ، لعب ، رقص ، رقة ، عطر ، خيال ، أم ، أب ،....) وهو معجم مختلفٌ - كما قلنا - عن معجم الجواهري المعتاد، وكذلك زاوية النظر التي عالجهما الجواهري في هذا النص،

وهو الحديث عن الأطفال ومع الأطفال، وربما هي طريقة أصعب بكثير من الحديث مع الكبار، التي مشى عليها الجواهري طول حياته الشعرية، ولكنه هنا يتحدث عن الأطفال وهو في عام ١٩٦٢

تعوداً أن يسرحا ويمسرحا

وأن يصبأ في النفوس الفرحا

لم يبیرحا، لا يعرفان البرحا

المصادر

الزبيدي، سعيد جاسم ، ٢٠١٥، كنوز المعرفة ، ط١، من معجم الجواهري.

العلاق ، علي جعفر ، الشروق ، في حداثة النص الشعري.

الجواهري ، محمد مهدي ، (١٩٧٧) ديوان الجواهري، تحقيق/د.ابراهيم السامرائي، د.مهدي المخزومي، د.علي جواد الطاهر، رشيد بكتاش، مطبعة الأديب البغدادية، وزارة الاعلام، مديرية الثقافة العامة

_____ ، (١٩٩٩) ، ذكرياتي ، ط١ ، دار المنتظر،.

النصير ، ياسين ، زهير الجبوري، (٢٠٠٨) ، المكانية في الفكر والفلسفة والنقد، دار نينوى.

_____ (٢٠١١) ، جدلية التأثير والتشكيل ، شحنات المكان ، دار الشؤون الثقافية.

References

- Al-Nasser, Yaseen & Zuhair AL-Joubouri, (2008). Spatiality in Thought, Philosophy and Criticism. Baghdad, Ninawa Publishing House.
- Al-Jawahiri, Mohammed Mehdi. The Collected Poems. Edited by Ibhraheem Al-Samarrai et al. Baghdad, Al-Adeeb al-Baghdadiyya Printing House.
- Al-Jawahiri, Mohammed Mehdi(1999). My Memoire. Beirut, Dar Al-Muntadhar,.
- Al-Zubaidi, Saeed J. From Al-Jawahiri 's(2015) Lexicology. Baghdad, Kunooz Al-Marifa Printing House. Al-Allaq. Ali J, (2002). In the Modernity of Poetic Text. Amman, Al-Shurooq House.
- Al-Nasser, Yaseen.(2011). The Pulse of Space: The Dialectic of Formation and Influence. Baghdad, Cultural Issues House,.